دقّت الساعة نصف الليل

قصة بقلم مطاع صفدي

لم يكن الا الايقاع ، من كان اشقر يظلل النغم ويسفحه على الارض الناعمة الصلدة .. ومن قدمين صغيرتين تبعثران حبات النغم ، وتصل الحجر البارد في الارض ، بخفقان الجسد الابيض المكسو بالنار ، المعربد في قالب سديمي يتشكل في خصر انحل من قبضة عاشق ، وساقين ونهدين. زاد انوثة ، تبعثر النغم ، وشبق العيد ، وغربة راقصة .. تسوح في الارض وتتهالك مرة واحدة .. هنا ، على بلاط ملهى ليلي معتم بدمشق ..

كان شعرها اسود ، وثوبها الشفاف اسود ، وجو المقهى غيمة سوداء وكذلك هذه الزجاجة السوداء ، مصلوبة في الفراغ المظلل كانها لا تمس منضدتي . تشخص لي .. الرجل القابع متوحداً في ليلة رأس السنة .. وانا اشخص لزجاجة لينة من الخمر اللحني ، اللحمي اللزج ، كيف ترقص ثائرة في الحلبة ، يبوح فيها الجسد والحركة الرشيقة ، والايقاع من كل عرق وكومة لحم فيها .. ومن القدمين العنيفتين .

وكان اللحن عربياً من اسبانيا . وكانت هي محاولة لتفهم النغم. ولكن صرخت فيها اعجميتها ، فنبت عن الاصالة . بينما حسب الحاضرون فيها ما حاولت هي ان تكون .. ولكن لم تخدعني .. انا الذي اتشربها بنهم سري بعيد عن فريسته ..

خلبني الجسد الاوروبي البض ، والتقنية المتقنة الكاملة . وساءني انها فضحت كل شيء . فقبعت هناك ارسو في ضحولة اعماقي مع الشراب الذي تصبه كأسي على أواري .. وراح رأسي يدور مع الجسد في الحلبة ، مع اللون الاسود في كل شيء ، مع بضع افكار تتسلق جبيني بضنك . وتلك هي القصة .

•

كانت على مسافة قريبة مني ، انملان دقيقان من اناملي يعبثان بالكأس. اود لو انني لا اري الكأس ، لو ان الخمرة تنتقل الى جوفي بطريقة ما ، دون ان ارفع ذراعي ، ودون ان تمس شفاهي الزجاج البارد ، ثم ارى كل ذلك السائل المسود ينهال وزبده الراغي الى جوفي.. كأني.. بل لأقل ، ذلك القاع الرملي الجاف دائماً مهما صبت به اعاصير الصحارى من امواه .. تحرقها الشمس قبل ان يتبلغها ..

لا ريب انني هنا منذ مدة طويلة . والا لماذا طلبت زجاجة ثانية ، بل ثالثة من الوسكي ، لاتجرعها ، كما تجرعت شقيقتيها ، دون ان اتحرك ، صامتاً ، انظر الى الحلبة أتابع راقصة ترتدي الثوب الأسود الشفاف، تغيب ثم تقذف بها الموسيقى مرات الى الحلبة ...

وكنت احب لو انظر بين الفينة والفينة ،في من هم حولي . كانت المناضد تربض الاجسام حولها شيئاً فشيئاً، وترنو من فضائها الضيق، باقات الرؤوس تبحث عمن هناك يدور في الحلبة .. الجسد المسعور .

واذكر انه منذ قليل ، وقد امتلأ الملهى برواده ، اندفع الي ثلاثة اشخاص وحاولوا ان يجلسوا مباشرة حول منضدتي ، على المقاعد الخالية . ولكن واحداً منهم قام بحركة منعت الاخرين من الجلوس وتقدم مني يحاول التأدب بطريقة سوقية مبتذلة: «يا افندي هل تسمح ان نجلس هنا؟».. وتطلعت اليه. كان وجهه مبيض الاديم لكثرة ما دلك بالمساحيق البيض الكلسية .. محمراً قليلاً في الخدود المغضنة لكثرة ما مرت فوقها موسى حلاق له يدا نجار محترف . وكان شعره لامعاً بزيت يسيل على جبينه وفوديه ، ومكدساً فوق رأسه ككومة من الحجر الاسود البراق الذي جمدته العوامل الطبيعية . وكذلك لمت بذلته الكحلية من خلال لون حائل اجرد . وعندما نبس بتلك الكلمات القليلة المصطنعة شحنها بهبات من روائح العرق الرخيص . ويبدو ان نظرتي ثبتت في عينيه اكثر مما ينبغي ، دون ان يقول له وجهي شيئاً ، او تتحرك شفتاي بحرف . واذ ذاك رأيته يتراجع والاخرين ، وكأنه خادم سحقته نظرة سيده التي حاول ان يجابهها مرة ..

نعم .. لقد كان الملهي حافلاً بالسوقة تلك الليلة . وهؤلاء هم رواده الطبيعيون . وقد انعقد الضجيج والدخان وبخار العرق في جو الملهى . فصرخت الافواه العطشى صراخها القاسي المباشر . وحشرجت الرغبات ، واندلعت بصديدها في عروق معربدين .. زحفوا من احياء ملتوية في قلب المدينة . عفن فيها الحرمان واستنقعت في حجورها تقاليد القبور ، واراجيف العقائد .. فجاؤوا هذا المقهى ، وكل قد اباح لنفسه ان يحيا ليلة واحدة ،ان يعود انساناً لمساء عابر،ولكن لم يعد الا حيواناً استنفدت تقاليده انسانيته ، فلما هجرها الليلة ، لم يبق له شيء ..

لم تبرح ذهني المتموج صورة ذلك الانسان الذي سحقته نظرتي . كنت لا اعلم في الحقيقة لماذا نظرت اليه متحدياً .. الا اني كنت تلك اللحظة افكر في معنى الانسان الشعبي ، الانسان المقتول ، المدفون في ازقة المدينة .؟

وقبل ان يتقدم مني ذلك الشخص ذو البذلة الكحلية الباهتة ، كنت احس من حولي نظرات الحذر التي يخالطها ازدراء النفس وتعظيم الآخر فكانت المناضد القريبة مني تتبادل الحديث بتلصلص ذليل . كان بعضهم يحاول ان يبدو افندياً !

والساقي ادهشته عندما دخلت ملهاه المتواضع ، ثم ادهشته اكثر عندما طلبت الويسكي. وزادت انحناءاته لي حتى كاد يلمس الارض برأسه الاصلع وهو يقدم لي الزجاجة الثانية ثم الثالثة .. من ويسكي رديء اقرب الى السواد في لونه ..

والآن اشير اليه ، وكأنه حبس نفسه وانفاسه منذ ساعات يرقبني لاشارة تبدو مني فيهرع لخدمتي .. وصعقته اذ طلبت عرقاً .. ودارت عيناه ، والقى الي بكل نفسه ضمن احساس واحد سطحي : وكيف !! وانصاع ، وركض منصاعاً . كم هو لذيذ ان يعدو انسان بجسد تشده الى الارض دائماً كلمة حقيرة : امرك !

واذ ذاك ارتضيت لنفسي ان اقابل ذلك السؤال الحائر الذي بدا ينعقد في ذاتي منذ ساعات : ماذا اتيت افعل هنا !

انه السؤال نفسه الذي اتى بي هنا منذ مطلع هذه السهرة ، عندما كنت اركب الى جانب تلك الشلة من الاصدقاء والصديقات في سيارة ، تتجه بنا نحو فندق سميراميس الكبير لنقضي سهرة رأس السنة هناك . فجأة انبعث ذلك السؤال في نفسي : ماذا افعل هنا ؟ وتثاقلت نفسي بكتلة من ضجر كثيف اخذت تخثرني .. فطلبت فجأة ايقاف السيارة .. واعتذرت بصورة ما .. واندفعت الى الرصيف .

واذ اصبحت وحيداً على الرصيف المقفر شعرت بنوع من الراحة . ورحت منطلقاً دونما جهة .. كانت يداي في جيبي المعطف، وكانت خطواتي شيئاً مدهشاً يوقع موسيقى طربت لها .. على احجار الرصيف الاصفر . وما ان سرت قليلا هكذا حتى استوقفتني انوار تؤطر صورة كبيرة لراقصة : نظرت اليها انها هي..ودلفت ، ووجدتني هكذا اتجرع الويسكي محتفلا بطريقة خاصة بالعيد ، وانا ارنو الى راقصة تصطنع رقصاً اسبانياً اعرفه ، احبه .. فقد خلقت يوماً كل حركة فيه، كل نغمة ورعشه ..

***

شعرت بأن شيئاً ما يزحف بالقرب مني ، فالتفت برأسي الثقيل . كان الساقي مرتبكا يقف الى جانبي . وكأني ساعدته بالتفاتتي بعد ان حار كيف يجرؤ على ان ادير له رأسي .. فانحنى وهمس في اذني:

–سيدي يمكن.. يمكنني ان اتيكم بها . ان اردتم ..

وكدت ان اقول « من ؟ »ولكني ادركت ما يعني .ولم اكن مستعداً لاناقش الامر ،فهززت له رأسي موافقاً .. وانسحب رشيق الذلة خفيفاً .. يطبق مهنة قديمة ، هو عريق فيها .

وبعد ثوان عاد الي مهرولا وقادني الى صف آخر من المناضد عال، تقوم الحواجز بينها . وجلست على احداها ، ثم ما لبثت حتى رأيتها قادمة بثوبها الاسود الشفاف الذي رقصت به . وحيتني بالفرنسية وجلست .

ورحت انظر اليها عن قرب ، كان وجهها دقيق الملامح ابيض ، ولم يكن شعرها اسود كما يبدو مطلقاً .. ثم قلت ببطء .

– لست اسبانية على كل حال ..

فأجابت مبتسمة – وماذا في ذلك ؟ اني فرنسية .

– هذا واضح .. ولكن لماذا اخترتني من بين الحاضرين انا بالذات ؟

– انك لا تبدو مثلهم .. اثرت انتباهي بهذه النظرات التي تتفحص في كل شيء .. تعريه حتى العظم .. ترى ماذا اكتشفت بي يا سيدي؟

فضحكت وقد شعرت بالحرج. ترى ماذا اقول ؟

– في الحق انك ترقصين جيداً . ولكن ليس هذا الرقص من نوعك . أعني الرقص الاسباني ..

– صحيح .. بيد اني لا يمكنني ان ارقص الباليه الكلاسيكي في ملاهيكم،اليس كذلك ؟

– ولماذا ؟. لقد كانت ..

واقتمت الجملة في خاطري السكران « كانت ترقصها هي » ولكن ماذا يهم هذه الراقصة الفرنسية من راقصتي .. ومن حديثي عن فتاة اسبانية مرت يوماً بهذه البلاد عابرة كما مرت بحياتي ؟

وحولت الحديث فطفقت اسألها – كعادتي – عن اسمها وعن بلدها .. وهكذا انهمكت تروي لي قصتها وانا اصب كؤوس الويسكي . وراحت هي تتحدث وانا اصيخ .. ولكن ليس لها .. ليس لها ابداً .

فقد تبدلت الصورة امامي ، وتحول الوجه الابيض الى وجه اسمر ، والملامح الدقيقة المنسجمة الى عيون سوداء كبيرة وفم مورد الشفتين غنيها والعنق البض اليوناني الى عنق خمري حار .. وكل هذا الوجود المتكامل المتعادل كتمثال يوناني ، الى وجه ينور بالحياة ، يبح بالحركة المبدعة ، يحطم ابعاده كل لحظة ليبنيها مرة اخرى جديدة .

لقد برزت امامي (ماريانا) ثانية تحدثني عن حياتها ، حياتها هي .. وكم ذا تبدو تلك الحياة مفعمة بتقاطيع هذا الوجه الجميل . وفي الحقيقة ، لم تكن تماما لتتخذ موقف انسان تهمه حياته وحوادثه الى درجة ان يجعل منها حكاية تروى . فهي تضحك ، وتغمز بعينها ، وتتجرع رشفات من الكأس. وتحني رأسها الى وراء ،وتطلق سواد شعرها الفاحم موجات على الكتفين وفي الفضاء المنهار وراء الكتفين . وخلال كل ذلك كان ثمة بضع كلمات تنثرها . فتقول اشياء بلهجة . لتنفيها بلهجة ثانية . وترمي بكلمة لتحول معناها بكلمة اخرى . والبشر ، وآلاف من ظلاله ، من حالاته المختلفة ، من الوانه .. يتدافع مزدحما من الصوت الموسيقي المبحوح ومن الوجه المتأجج بالخمرة واللمحات الخاطفة من متناقض العواطف والاهواء . ومع ذلك كانت تروي لي قصتها . وبتلك الطريقة الراقصة الحافلة كانت تقحمني تدريجيا في تفاصيل تلك الحياة . ودون ان تعطي اهمية لشيء تبرز كل حادثة كأنها فريدة ذاتها .وعندما قالت لي انها ولدت قروية اضافت بلفتة مباشرة : «ولكني طمحت الى المدينة».

تعلمت ان ارقص ، وفي بلدي كل الناس يرقصون .. ولكن اسألك بالله .. هل تكون سنبلة القمح راقصة ؟ كنت اقلدها اذن دائما ..وغمزت بالعين الدعجاء ، واحبني شباب كثيرون في بلدي . ما ابسط الحب هناك . ان الخبز قليل ، ولكن القلوب عامرة . وقالوا ان لي اما .. عرفت فيما بعد في جولة ، في قرى الجبال باسبانيا .. ان هناك امرأة قتلت بين كثيرين من الرجال في حروب العصابات ضد الديكتاتورية . وفي الليلة التي عرفت فيها نهاية ام لم ار وجهها قط .. رحت ارقص بحيوية غريبة .. كنت اتمنى ان افعل شيئا اكثر من الرقص .

بعدها ببضعة شهور التقطني سائح فرنسي . وفي المقابلة الاخيرة قبلت اقتراحه بالزواج . كان ذلك الفرنسي مؤدبا . فلم يبحث قط في موضوع الحب . ولم يسألني قط عن عواطفي .. نسيت ان اقول انه كان عالم آثار.. وكان يشتغل في دراسة الاثار العربية .. آثاركم ..

وضحكت مستطردة : يروي جدي .. انني من اصل عربي .. لا تصدق ذلك .. من يدري . وماذا يهم ، لقد كنت مجرد فلاحة اسبانية سمراء ، ارقص ، واحب .. ثم اصبحت زوجة لعالم فرنسي في الآثار.

وعندما عدنا الى باريز اطلعت بطريق الصدفة على مقال طويل كتبه في مجلة الآثار زوجي الرصين ، ولم افهم الا ما ندر مما كتب هذا العالم . غير اني توقفت عند جملة لا اذكرها... ربما كان معناها .. اوه ومـا اسخفني! لماذا احدثك بذلك الآن ؟نعم كان لها معنى اغضبني .. ترى وما في ذلك لكي اغضب ؟ كل ما قاله : ليس في كل ما بنى العرب بالاندلس اصالة عربية .. انها مجرد خلط ومزج ، كعادة العرب في كل ما عملوه اثناء فترة تلك الحضارة المصطنعة ..

اوه ... لكم كان منظراً مضحكاً ان اناقش عالماً في الآثار . كل ما اجبته هو انني اشعر بان ذلك كذب ... كذب ...

كانت باريز يا صديقي تكذب دائماً بلباقة كبيرة . وكنت انا هكذا غارقة في كذبة كبيرة : زواجي وبيتي الكبير ، كالمتحف ، والخدم ، والمؤتمرات العلمية ... ومرة طلب مني اصدقاء زوجي برؤوسهم الصلعاء ونظاراتهم السميكة ... اجل ... هؤلاء انفسهم ارادوا مني ان ارقص

لهم رقصة من بلادي . واندفعت بثوب السهرة راقصة ... كيف رقصت تلك الليلة ... شعرت كأني ... كأني انتقم ، انتقم بمثل هذه الانفعالات العنيفة التي يعرفها اجدادي العرب . لقـــد ضربت الارض وتحديت الفضاء . واهتز جسدي كعاصفة حبيسة ... او خيل الى ذلك ، اترى اني ابالغ ، هذه عادتي ...

وفي اليوم التالي .. تركت بيت الآثار . وخرجت اعدو بنفسي ، بلباس فلاحة راقصة من جبال الاندلس . وهكذا عدت جوابة آفاق. فالتحقت بفرقة تسافر نحو بلاد العرب ... وهأنا في الارض العربية . انه امـــل كبير ... ولكني احس بالانقباض .. ان بلادكم كبلادي ملأى بالآثار .. واما هم .. هم ؟؟

يا لها من خرافة ، كيف اطلب ان يكون الاموات احياء .. اترى انني غبية حقاً ؟. كنت ارغب منذ طفولتي الاولى ، منذ ان كنت اجلس في الخرائب الكثيرة المحيطة بقريتي .. بين الاعمدة الشاهقة والاحجـــار الكبيرة .. لو ان الحياة تدب مرة اخرى في هذا الحطام على طريقة من اشاد يوماً ههنا قصوراً . تلك رغبتي دائماً التي رقصت لهـــا وجبت من اجلها العالم .. واتيت اخيراً لارى عربياً ضعيفاً ههنا .. تصـــور انني اريد ان ابعث عمالقة خيالي في ملاهيكم هذه.. بينما تتداولني المناضد والجيوب والافواه المربدة. أليس هذا مضحكاً؟..»

وحدجتني لاول مرة بنظرة طويلة، كانت من قبل توزعها على عالم غير مرئي . وقالت :

– انك هادىء ايها الشاب .. ولست انت ابداً ممن يدمنون الخمرة في ملهى كهذا ، اسألك اذن ماذا اتيت تفعل ..؟ راقبتك طيلة السهرة . فلم يأت احد ويشاركك طاولتك . وكنت تتجرع وحيداً كؤوس هذا الشراب الانجليزي . وتدخـــن وتنظر الي وانا ارقص ، دون ان اري في وجهك الرغبة المعروفة ولا النداء العادي ... او لم اعجبك يا ترى ؟..

وانتبهت عند هذه الجملة الاخـــيرة الى ان ماريانا لا تحدثني . وان الفرنسية هي التي قالت الجملة الاخيرة ، بل ربما قالتاها معاً .. واحدة منذ عام تام ، واخرى الآن .. واجبت منتفضاً مرتبكاً :

– اوه كلا .. كلا على الاطلاق ، ليس الامر كذلك .. ! انما انا شارد قليلاً بطبعي .

.. بل انه الجواب عينه الذي قلته لماريانا . وضحكت هي آنـــذاك وقالت : ارأيت كيف تسمى الراقصة دائماً ، مهما كانت، الى الاعجاب ؟

وتلاقت عينانا . وبدا انه قد حان دوري لان اقول او افعل شيئاً ما.

فقلت ببساطة : انت جميلة . ولكن هل هذا يهمك حقاً ؟

واجابت : كما يهمك انت مثلاً ان تأتي صدفة الى ملهى ليلي عرق . قل بربك هل تنتمي لمتحف ما ؟

وعادت الى ضحكتها الصارخة .

– لماذا لا تعامليني كحجر اذن ؟..

– انك تعجب بي لصفة خاصة احملها غير الرقص .. اعترف.

– ولكنك قديمة جداً

– يا لها من حكمة .. اتدري .. ان في بلدي اغنية .. اجل اغنيـــة نتناقلها جيلاً بعد جيل، اسمها« الحنين ».ان رقصي حنين يا هذا

– واما انا .. فاود لو اكون تطلعاً .. تطلعاً فقط ..

وكدت ان اتكلم اكثر.ولكني على طريقتها فضلت ان تتفهمني عيناها.

فكل كلمة اخرى ستعقد الموضوع اكثر . وتجعلها لا تفهم ما اعنيه تماماً . لقد كانت مجرد راقصة !

واعلن رئيس الاوركسترا رقصة نصف الليل التي ستدشن بها سنة جديـدة .

ولم تطل نظرتها الي . فقد اخذتها من يدها الى الحلبـــة . وبدأت الانوار تدريجياً تنطفىء مع انغام الموسيقى العميقة . وكان كان ينساب بلحن رهيب على ايقاع خفي سادر . ولم يكن قد بقي الا دقيقتان .

ماريانا لصق صدري . يخفق قلبانا الخفقة الواحدة . وأحس بهامـــل وجودي كما لو انني لا اكون بدونها . ففي مثل تلك اللحظات يشتد فقر الانسان ، كما يفنى بأرشق حلم عابر . وكنت اضغط عليها اقوى كلما قرعت الساعة دقة اخرى لتعلن الثانية عشرة .

هذه الدقات الفاصلة ما اقساها ! انها تقول : كل شيء يموت ، وكل شيء يولد جديداً !

وفي منتصف الليل حيث تخبو الاصوات ، وتتلاشى المدينة في ظلامها ، لا يكون شيء اشد ارعاباً من الصوت المنيف الواحد الذي يتكرر ليعلن اللحظات الفاصلة .. ساعة تدق في ساحة ما .

ورفعت وجهها الي .. كنت اقول لها دون ان تسمعني : نعم لست من ابناء الملاهي ، ولكني من ابناء المدينة الكبيرة.والمدينة زمان ثقيل تعبره لحظات فاصلة لا يشعر بوطأتها الا بضعة وجدانات ضائعة . ولذلك كان حمل هذه اللحظات مرهقا منهمكا على هذه الوجدانات القليلة . وربما يبدو انني التجأت الى الملهى لاسمع دقات واضحة ولاعرف كيف يعاني المرء احساسا بالموت والحياة في مثل وضوح العيد ، وضوح لا يبعث الا عـــلى الفرح .. وانت ايتها الاسبانية التي صور لها حلمها الاوروبي انها عربية ، من هو اعظم شقاء من الذين يملون في البحث ممن يحبون الحطام ويحسون الزمن الحاضر ، ومسؤولية كل لحظة فيه تنقضي دونما بعث ؟ نعم .. !انني اهرب ولو لساعة يا صديقتي الملهى ، لاجابه مسؤولية لحظة حاسمة تدق في اذني واضحة .. ليس هناك ارهب من مسؤولية الزمان الضائع .. تماماً على طريقتك ، وانت بين الخرائب اذ تحسين باهليها وحوادثهم ومأساتهم تحيط بك من كل جانب بشكل غامض مخيف . اتيت الى هنـــا لتكتشفي سبب خوفك ، لتقارعي الرعب في اشخاصه الحقيقيين،لتثبتي لنفسك انه .. حتى هنا،هنا لا شيء الا المتاحف ، وبالتالي لا خوف ولا رعب ..!

وكذلك .. تماماً كما فعل ابناء جنسك كلهم ، الاوروبيون عنـــدما ظل كابوس العرب يخيفهم فلم يجدوا الا ان يكتسحوا بلادهم ليكتشفوهم نهائيا ..!

وكانت عيناها تتبمانني ، اتراها تفهم حقا ؟..

وهمست ، بفرح وكأنها تذكرت عيداً خاصاًبها : لقد صممت يوما ان اكون راقصة فكنت ، وصممت ان ازور بلاد العرب ففعلت .. وهـــأنا ارافص عربيا .. حيا !

وعادت الى وجهي بعينيها الكبيرتين تتساءل : الا ينقصنا شيء كبير لكي نكون نحن ايضا ... مثلا ارادة التصميم هذه والمسؤولية الكاملة..!

وشعرت وهي بين يدي انها تهتز اهتزازاً خاصا يخالف ايقاع اللحن، وعندما هممت ان اقول لها ذلك ،انطفأت الانوار كلهـــا .. ودهمني ثغرها الناري . وكانت قبلة عنيفة قالت لي بعدها وهي تلصق خدها بخدي :

– لا ضير .. لا ضير مطلقا ، فانت وحيد ، وانا وحيدة ، ولا بد من قبلة عندما تدق الساعة منتصف الليل ... لا معنى لها ولا اثر ..

أليس كذلك ..؟ سننساها ... انها لا شيء ، كاللحظة العابرة التي التقى بها الموت والحياة : سنة ماتت ، وسنة ولدت جديدة .. لا معنى لها. أليس كذلك ؟

واشتد ضغطها ، ثم لذعت وجهي دمعات لاهبة من عيونها السوداء الكبيرة ...

وعدت لاقول : كأنك ترقصين لحناً آخر

فاجابت بنشوة : هو كذلك .. وكيف عرفت ؟ اه كان ينبغي ان اؤمن بنظرتي الاولى اليك ، كما تقول ساحرة الفجر قرب قريتنا ..
لا شك انك موسيقي ، وضربت الارض بكعبها العالي

– اجل .. فهل تريدين ان تسمعي هذا اللحن الذي ترقصينه دون ان تشعري .. ربما استطعت ان التقطه ..

– هيا بنا !

– الدرين اين ؟. في بيتي ..

– قلت لك هيا بنا .. وليكن في الجحيم .!

***

وعندها نظرت الى راقصتي الفرنسية ، كأني انتظر منها ان تعيد هي ايضا قول ماريانا منذ سنة تماما . ولكني انتبهت اليها وهي تحاول التخلص من بين ذراعي .

– كفى .. اننا نرقص منذ اكثر من ربع ساعة .. لقد آلمتني .!

فتركتها تنطلق الى الطاولة ، وهناك تطلب عشاء ثانيا . واجلس انا قبالتها لأتجرع كؤوسي على مهل .. اتأملها لارنو من خلالها الى غيرها . بينا لسانها الفرنسي لا يكف هنيهة عن الثرثرة في كل موضوع . انها سعيدة زلا ريب . ولم لا، فاني احسن زبون في الملهى يبعثر المال حسبانا شاء ارادة فتاة من الليل .. فرنسية تقضي عيد رأس السنة على بعد آلاف من الاميال عن وكر لها دافيء بباريز .

في غرفتي كان كل شيء معداً : الصمت والانارة المظللة ، والدفء ، والخمرة العتيقة الخاصة .. والكمان . وراحت ترقص ، تردد علي حديثها، تفصح اكثر مما افصحت ، تكشف كل شيء برمز ، بحركة ، بالتفافة ، برقص رائع استوحى عظمته من طبيعة وخيال وتاريخ ، ومشكلة فرد من الناس : فتاة لها حلمها ومشروعها الصغير في حياتها : ان ترقص ، وان تزور بلاد العرب ، وبعد .. ليكن ما يكون .

وكما اراها في اعظم ليونة لابدع جسد ، تنبثق منها افانين التعبير .. اراه ايضاً هو .. يعزف ما شاء له العزف مرتجلا على كمانه من وحي الراقصة ، والمناسبة التي جمعته اليها ، واللحظة الحاسمة ، وفلسفته الكبيرة تلك عندما توجد لها تعبيراً صغيراً محدوداً ، ولكنه ثمين كاعمق رمز ، في مثل هذا الحادث الشائق الحلو .

وعندما تعبا التقيا مرة ثانية بعيونهما . وقالت له تلخص انفعالها عنه :

– انك فنان ، وموسيقاك هذه لن يتقبلوها هنا .. بدون شك ، انها شيء آخر غير ما يحبون في ملاهيهم وشوارعهم ومواخيرهم ومتاجرهم .. غير ما يريد حتماً بنو وطنك ..

وحول هو قولها ذاك الى لغته بنفسه قائلا :

– انا اعبر عن الثورة باداة الثورة وبعلها وفنها . واما هم فلم يعرفوا بعد انهم يعدون لجيل الثورة ولتاريخ الثورة .!

وصاح به فجأة :

– ولكن لست متهناً حرفة العزف، انك لا تعزف الا لنفسك، هذا واضح تماماً من نوع عزفك ومن طريقتك الشخصية فيه . لماذا لا تكون موسيقياً . اعني لماذا لا تنضم الى فرقة اجنبية مثلاً وتعزف في البلاد التي تقدر فنك وتفهمه ؟ .

وارتبكت يده فوضع الكمان جانباً واخذ قدحا آخر من خمرته الخاصة . وتمتم دونما ايمان :

– سيفهمون ما اعزف قريبا ، هذه الموسيقى من وحيهم وهي لهم ، ولا بد ان يقدروها يوما .. وان تؤثر فيهم رسالتها .

– هذا وهم يا صديقي الصغير .. وهم ! انك ضائع هنا .. والزمان سيجعلك تضيع اكثر .. هؤلاء الناس ليس لهم مستقبل .. الم نتفق انهم في متحف ؟.

– كلا .. مثل هذه الموسيقى هي التي تثبت انهم مخمورون فقط، وليسوا متحجرين . ستوقظهم هذه الموسيقى ، او الثورة التي تعبر عنها موسيقاي.. او غيرها من الفنون المنبعثة اليوم في امتنا ..

– بل انه وهم كذلك .. ولا تخلط بين مشكلتك انت خاصة ومشكلة الامة . انك معزول وغير مفهوم ، ثق .. بل اعترف بذلك . واما مشكلتك فهي انك دون جرأة .. انظر : لقد تركت بلادي لاكون راقصة ولاجوب العالم .. ان العالم يسحرني ولهذا منحته وجودي .

– ارادة التصميم اليس كذلك ؟.. صحيح لا استطيع ان اهب نفسي لفني .. لا استطيع .. وهل تعرفين لماذا ؟ لاني لست واثقاً انني موسيقي حقاً .. بل لاني اريد ان اعيش بوسائل اهل بلدي هنا ..

– تعال معي الى فرقتي واعط نفسك لحريتك وفنك .

– اواه ليس بيننا من هو حر .

– الا ترى انني اعيش وفق ما اريد ؟

– اجل .. ولكني احب ان اعيش وفق ما يريدون .. بل لاقل ان حريتي مقيدة بحريتهم .. وليست حريتي في الفرار ..

ودار الحديث بينهما . وكانت ماريانا تحاول عبثا ان تضع صديقها

صدر ...
الروم
في سياستهم وحضارتهم
ودينهم وثقافتهم
وصلاتهم بالعرب
للدكتور أسد رستم
... عن دار المكشوف
ويباع في جميع المكتبات

لحن

جارتي مدت من الشرفة حبلا من نغم
نغم قاس رتيب الضرب منزوف القرار
نغم كالنار
نغم يقلع من قلبي السكينه
نغم يورق في نفسي أدغالا حزينه
بيننا يا جارتي بحر عميق
وأنا لست بقرصان ولم أركب سفينه
بيننا يا جارتي سبع صحارى
وانا لم ابرح القرية مذ كنت صبيا
ألقيت في رجلي الأصفاد مذ كنت صبيا
انت في القلعة تغفين على فرش الحرير
وتذودين عن النفس السآمه
بالمرايا واللآلي والعطور
وانتظار الفارس الأشقر في الليل الاخير
« اشرقي يا فتنتي »
« مولاي »
« اشواقي رمت بي »
« آه لا تقسم على حبي بوجه القمر
ذلك الخداع في كل مساء
يكتسي وجهاً جديدا »
وانا لست اميرا
لا ، ولست المضحك الممراح في قصر الامير
سأريك العجب المعجب في شمس النهار
انا لا املك ما يملأ كفيّ طعاما
(وبخديك من النعمة تفاح وسكر)
فاضحكي يا جارتي للتعساء
واذا اومض في الظلمة مصباح فريد
فاذكري
زيته نور عيوني وعيون الاصدقاء
ورفاقي طيبون
ربما لا يملك الواحد منهم حشو فم
ويمرون على الدنيا خفافا كالنسم
ووديعين كأفراخ حمامه
وعلى كاهلهم عبء كبير وفريد
عبء ان يولد في العتمة مصباح وحيد

القاهرة — **صلاح الدين عبد الصبور**

الموسيقي تلقاء فنه . وكان هو من طرفه يربط دائما بينه وبين الآخرين . . ولا يرى لفنه معنى بدونهم . . حتى خيل اليها اخيراً ان هذا الشاب من الصفق بحيث لا يستطيع ان يقرر شيئا .

وعاد الى العزف ، وعادت هي الى الرقص . ثم ناما بهدوء الاطفال .

وفي ظهيرة اليوم التالي وجد شاب يودع فتاة باسلوب مؤثر ابكى الحاضرين قرب الطائرة .

كانت فرقة ماريانا مسافرة لمتابعة رحلتها عبر الشرق . وقد رأى المسافرون كيف ، حاولت فتاة جميلة جداً ان تشد الشاب معها لتصعده الطائرة . . بينما كانت تبكي . . والشاب يقف مسمراً في ارضه يهز برأسه ان لا . . لا

وعلا ضجيج الطائرة . . وغلف الفضاء ماريانا .

***

نظرت الى صديقتي الراقصة الفرنسية وقد انهت عشاءها الثاني وراحت تحتسي كأساً اخرى : فسألتها

– اتبقين طويلا في دمشق ؟

– كلا . . سينتهي تعاقد الفرقة في نهاية الاسبوع .

– وبعدها ، الى اين تسافرين ؟

– ربما الى الشرق . . ولا ادري متى نعود الى الوطن .

وكدت ان اسألها : هل تعرف فتاة راقصة اسبانية تسمى ماريانا . ولكن ما الفائدة ؟ ربما كان الشرق يبتلعها الآن من متحف الى آخر !

ثم قالت متثائبة :

– الا تنام . . هل تجيء معي الى فندقي ؟

– لا . . شكراً سأذهب الى بيتي .

وبينما كانت تنظر الي دهشة . . كنت ادفع للساقي حسابه وانا اقول له :

– هذا مبلغ عن فاتورتين لعيدين . .

وتركته ابله تصرعه دهشته . . أولم احتفل بعيدين ، وتدق الساعة منتصف ليلتين . . ويفغر الشارع خارجاً فاه مرة ثانية كما ابتلع الفضاء فتاة سمراء من اسبانيا . . تجوب المتاحف ؟!

دمشق — **مطاع صفدي**